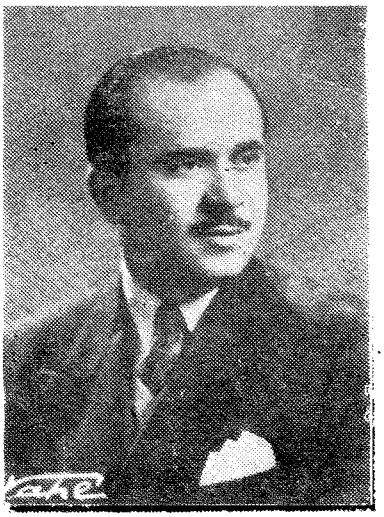

البطولة في الرواية العربية الحديثة

بقلم الدكتور سهيل ادريس

اذا اردنا ان نبحث في روايتنا العربية الحديثة عن خصائص البطولة كما كان يصورها ادبنا العربي القديم ، فاننا سوف نفتقدها لا محالة ، في معظم انتاجنا القصصي المعاصر .

والحق ان مفهوم البطولة قد تغير اليوم ، واتخذ معنى ومضمونا جديدين في اذهان المؤلفين الروائيين . فليست البطولة بعد تصويرا لاعمال الفروسية والشجاعة الخارقة ، وتمجيدا للاخلاق المثالية والمناقب الرفيعة والمزايا الاستثنائية التي تفرد بها عدد من الاشخاص اختصتهم الطبيعة بما لم تختص به سواهم من البشر ، فبرزوا وجوها رائعة عجيبة تثير الدهشة وتبعث على التقديس . اجل لقد صور ادبنا القديم كله البطل على انه فرد فائق يتجاوز الناس في صفاته ويسلك في مواجهة الاحداث مسلكا مثاليا ويأتي من الاعمال ما يعجز عنه سائر البشر ، وينتزه عن كثير مما يميز الناس من نقص انساني ، او من ضعف بشري .

اما ادبنا الحديث ، وروايتنا المعاصرة بالذات ، فقد كفت عن تصوير هذه البطولات لايمانها بانها بطولات استثنائية شاذة لا قيمة حقيقية لها في تطوير الانسانية او في اضافة كسب جديد لها .. ان الرواية العربية الحديثة قد انتقلت من ذلك الطور الى طور تصوير الانسان العادي ، الانسان الانسان ، هذا الذي تكمن بطولته في ان يكون انسانا حقا ، لا انسانا فائقا .

فليس من مجال بعد للموضوعات التقليدية المتعلقة بالعواطف البطولية ، والوقائع الخارقة . ونستطيع من هنا ان نقول ان انتاجنا الروائي الحديث قد امات البطولة بمفهومها التقليدي ، ليحيي بطولة اخرى هي بطولة الانسان الطبيعي الذي يعيش الحياة الطبيعية بكل ابعادها ، وكم هو مدعو الى ان يواجه مواقف تبرز عندها بطولته الحقيقية التي حسبها انها تخلق له الصراع النفسي الداخلي. ان بطلنا الان ، هو الذي يضطلع بمهمته ويتحمل مسؤوليته في الحياة ، مستبعدا كل مثالية فارغة ، نافيا كل تجريد ميتافيزيقي، مواجها وضعه بكل معطياته، شاعرا بثقله على الارض مؤمنا في الوقت نفسه بان عليه ان يصارع ويناضل حتى لا يرديه هذا الثقل في الحطة والضعة .

والحق ان الروائي الحديث يجد نفسه الان امام كائن شديد الغنى ، لكل نزعة من نزعاته قيمة، ولا يمكن ان يطرح منه جانب، ويؤخذ آخر . فالواقع اننا لا يمكن ان نعرف البطولة اذا لم نعرف من اي جبن هي منبثقة .. ولهذا نرانا نعجب بالانسان الذي يظهر الخوف والتردد امام الخطر اكثر من اعجابنا بالانسان الذي يقتحم الخطر دون ما تراجع او خوف . فليس الخوف منافيا للشجاعة بالضرورة ، ولسنا نخشى الشر او القبح او الانانية لاننا نؤمن بانها يمكن ان تصبح خيرا وجمالا وحبا وايثارا . ان الانسان لا يولد نبيلا او وضيعا وانما هي الحياة التي تجعل من الناس ارستوقراطيين او بورجوازيين او من عامة الشعب ، والانسان هو الذي يخلق نفسه ويطورها ويرتفع بها او يذلها . انه كائن شديد التعقيد ، ولا يخلو عنصر من عناصره من القيمة . ولهذا كانت خير الروايات ما يصور الكائن بكليته ، بمختلف عواطفه المتناقضة وذبذباته المتنوعة . وان احدنا ليبتسم حين يقرأ انتاج اولئك الذين بدأوا كتابة القصة العربية منذ نصف قرن ، فيرى ان احدهم لم يكن يطيق ان يجعل من الانسان مصطرعا لارفع الافكار واحطها ، وانبل العواطف واذلها . كان انسانهم مقدودا من معدن واحد . فهو اما ان يكون شريفا منذ البدء حتى النهاية، او ساقطا منذ البدء حتى النهاية . ولذلك كان الابطال في الماضي قليلين نادرين ، شاذين ، أما اليوم ، فكثيرون هم الابطال ، وقد يكون جميع الناس ابطالا . لانه لا مجال بعد للمثالية . ولان الواقعية هي حظ الناس جميعا ، وقدرهم .

لقد كان ادبنا الكلاسيكي يصور البشر على غير حقيقتهم اذ يتجاوز بهم اوضاعهم البشرية ويرفعهم الى رتبة المثال ، فينظر اليهم الناس من بعيد معجبين مشدوهين ، ويداخلهم اليأس من ان يصبحوا مثلهم ابطالا ، اما اليوم ، فليس هناك بطل منعزلا عن وضعه ، عن مجتمعه ، عن شعبه ، وليس هناك من عمل الا وله هدفه الانساني ، وله صداه في موطنه . ولن يستطيع هذا البطل ان يكسب حبنا واعجابنا الا اذا كان معدنه من معدننا، وتعرض لمثل ما نتعرض له من ضعف واقترف مثل ما نقترفه من اخطاء وآثام ، ورزح تحت ثقل افعاله . ولسوف نحبه اشد الحب اذا رأيناه بعد ذلك يحاول ان ينهض ، وان يتطهر ، وان يكفر .. لاننا ندرك بذلك انه يمثلنا حقا ويجسدنا صدقا ويشق امامنا طريقا ممكنا للتطهر والتكفير.

ومع ذلك، فقد عرفت روايتنا الحديثة، في فترة انبثاقها منذ نصف قرن تقريبا ، مثل هؤلاء الابطال المختارين من خارج الحياة الحقيقية على ايدي سليم البستاني وجميل المدور وفرح انطون وحافظ الدمنهوري وحتى المنفلوطي . فان معظم هؤلاء الابطال ذوو اخلاقية مصطنعة مزيفة مستمدة من اذهان خالقيهم . فليس في اشخاص المنفلوطي فقير الا وهو شريف نبيل بطل، وليس فيهم غني الا وهو منحط سافل دنيء ، وليس فيهم تقي الا وهو عظيم قدوة ..

وعلى ما كانت تهدف اليه الرواية التاريخية من تمجيد للماضي وحث

على استعادة المجد، كانت آثارها الحديثة التي وضعها جرجي زيدان ومعروف الارناؤوط ، ومحمد فريد ابو حديد وكرم ملحم كرم وسواهم تكشف لنا عن ذلك المفهوم المغلوط للبطولة والبطل ، اذ ترفع الوجوه التاريخية من مصاف البشر لتخلق لهم منزلة خاصة تمتنع فيها عليهم النقائص البشرية ويتبدون كائنات خارقة لا يجود الدهر بمثلها الا نادرا .

وبعد ، فان انسان روايتنا الحديثة ، وبطلها في ان واحد ، هو كائن يبحث عن ذاته الحقيقية عبر تجارب كثيرة ، يبدو فيها تائها قلقا غير مستقر ، يسافر طويلا في الماضي ويشطح الى المستقبل ، ويهاو كثيرا من النساء ، ويأثم ويخون ويتعثر ، ويحب الحب العاطفي والحب الشهواني ويخيب فيهما كليهما ، ولكنه يبدأ من جديد ، ويحاول مرة اخرى .. واذا آمن مرة بالقيم ، كفر بها مرات ، واذا داعبته الاماني والاوهام ، فلا تلبث الخيبات ان تدمي قلبه ، فيكتشف في اعماق نفسه يأسا واسى ، ويستبد به قلق عميق يتخذه سبيلا للاجابة على اسئلة كثيرة تطرحها عليه الحياة التي عاشها : لماذا يعيش ، وكيف يجب ان يعيش ، واي امل ينتظره ، واي مصير يترصده ، وما هي المقاييس الاخلاقية التي يطبق عليها مسلكه ، وبمن يؤمن وما عساه يرسم له من هدف ؟ .... اسئلة كثيرة لا تنتهي ، ولا ينبغي ان تنتهي حتى لا تقتل في نفسه هذا القلق الذي به يشعر انه انسان ذو قيمة ، لان عليه ان يلتمس الجواب على هذه الاسئلة عبر حياته وتجاربه ، ولان هذه التجارب تحل محل الفلسفة الحياتية ، بل هي فلسفة حياته بعينها . فاذا اتيح لهذا الانسان البطل ان يتغلب على جميع هذه العوائق التي تقف دون ان يهتدي الى نفسه ، انصرف الى العمل في ميادين الحياة وكلها ميادين شريفة نبيلة لانها ذات هدف مرسوم واضح ، وكان كل همه ان يكون فردا صالحا في بناء مجتمعه ووطنه، ومن ثم الانسانية جمعاء.

ان هذا البطل المعذب الذي يواجه الوان العنف والضغط ، والذي تدفعه قسوة الحياة الى ان يتذرع باليأس والحذر ، وان يطرح الحنان ، يستحق كل عطفنا وكل حبنا لانه قريب من نفوسنا ، بل هو من القرب بحيث نعرف فيه انفسنا احيانا خيرا مما نعرفها في ذواتنا . وانما نحن نحبه ونتابع مغامراته لانه اتخذ له مبدأ نبيلا لا بد ان يوصله الى نتائج ايجابية يهتدي بها الى ذاته ، ويعرف قدره وقدره ، هذا المبدأ هو الصراع .

اجل ، كانت البطولة الماضية ، كما تصورها الاثار الادبية ، هروبا من الحياة الى عالم الخيال واللا معقول والخارق ، اما اليوم فهي الاندماج بالحياة ، ومواجهة كل صعابها ، والتمرد على وقائعها ، والثورة ضد قوانينها ، ومحاولة التغلب على مآسيها وفواجعها . وغالبا ما يواجه البطل مجتمعه وهو مبتوت الجذور ، معزول ، غريب ، فاذا شرع في الصراع ، فمن اجل ان يصل جذوره بجذور مجتمعه ، والا استحال عليه ان ينسجم وبيئته ، وبالتالي انقطع ما بينه وبين الناس حوله .

* *

واذن ، فان عنوان بطل الرواية العربية الحديثة هو « الصراع » .وليس في وسعنا طبعا ان نجعل هذا الصراع عنوان مطلق انتاج روائي ، وانما نعني افضل هذا الانتاج واعمقه تمثلا . من اجل ذلك ، لن يكون في مكنتنا هنا ان نستعرض الا النماذج الكبرى في ادبنا الروائي ، مستقطبين فكرة الصراع حول ثلاثة موضوعات يمكن ان يندرج تحتها مختلف ممثلي البطولة بمفهومها الحديث .

والحق ان هذه الموضوعات الثلاثة انما فرضتها على ادبنا عامة ظروف الحياة التي عاش فيها الوطن العربي منذ اوائل القرن العشرين . فان قيام الاستعمار الاجنبي في ارضنا قد خلق في الشعب هذا الصراع الوطني الذي مثله عدد من الزعماء الوطنيين ، والذي تجسد في نماذج شعبية اتخذها الروائي ابطالا لقصته يمجدون الثورة ، ويحثون على التمرد لتحرير البلاد من ربقة هذا الاستعمار . ثم ان اتصال الشرق والغرب في هذا اللقاء المزدوج ، اما في اولهما او في الاخر ، اثار ضمير الشرقي (والعربي فيما يخص هذا المجال) حول قيمة هذا اللقاء ، فنشأ هذا الصراع بين الشرق المتفتح المستيقظ على نهضته ، وذلك الغرب المستعمر الذي يعجب ويخيف في آن واحد . وقد جسد هذا الصراع عدد من كبار روائيينا تجسيدا صادقا . ولم يكن للادباء ، بعد ذلك ، بد من ان يعيشوا وضع مجتمعهم المتخلف ومن ان يرصدوا محاولات الصراع العنيف الذي كان يقوم بين فئات واجيال وتقاليد ، ومن هنا كان تصوير هذا الصراع الاجتماعي من اهم موضوعات الرواية العربية الحديثة .

ولسنا نقصد بهذا التقسيم ان نقيم حواجز بين الوان الصراع الثلاثة، فهي قد تجتمع كلها في اثر واحد، وقد لا يفي اثر واحد بموضوع واحد منها، وانما هي مقتضيات البحث وملاحظتنا غلبة نزعة منها على نزعة قد دفعتنا الى هذا التوزيع .

فأما الصراع الوطني ، فقد صوره عدد من روائيينا كان من اولهم القصاص العراقي محمود احمد السيد في روايته « جلال خالد » (١٩٢٨) وبطل الصراع شاب عراقي ينتمي الى ذلك الجيل المتحمس من المناضلين الذين خلقتهم الثورة العربية الكبرى ، ابان الحرب العالمية الاولى في

الكتاب . .

أجمل هدية تقدمها في موسم الاعياد

مكتبات انطوان

ص.ب ٦٥٦

الاقطار العربية . ففي عام ١٩١٩ غادر « جلال » العراق الذي كان يحتله الانكليز ، وفي نيته ان يتجه الى الحجاز وطن الثورة العربية ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فقضى حينا من الزمن في الهند حيث صادق بعض الشبان الهنود الذين كانوا يعملون هم الاخرين من اجل استقلال بلادهم. وقد ربطته صداقة حميمة بصحفي هندي ثائر اتاح له فرصة توسيع افاقه الفكرية والوقوف على القضايا الاجتماعية والسياسية . وما لبث جلال ان ادرك الظلم الاجتماعي الذي يعانيه الهنود ، فخرج مفهومه الوطني من اطاره الضيق الى مفهوم انساني واسع . وقد شهد يوما اشتباكا عنيفا بين البوليس والمضربين من العمال ، فذكر انه انما غادر بلاده لانه لم يكن يحتمل ان تحرم استقلالها ، وانه لم يشهد فيها يوما اي اضراب « لانه لم يكن هناك عمال ، وانما مع الاسف فلاحون فقراء جائعون ، ومع ذلك فهم مستسلمون » وقد اثر الصحفي الهندي ، وكان اشتراكيا متحمسا ، تاثيرا كبيرا في جلال الذي ادرك انه كان يؤمن بمفاهيم كثيرة مغلوطة لم تكن ضرورة عدم تحرر المراة العربية اقلها شانا . وقد ظل يواصل تثقفه ويستمع الى المحاضرات العديدة التي كان يلقيها اساتذة معروفون حتى بلغه نبأ ملاه حماسة وسعادة . وهو نبأ ثورة القبائل العراقية في الشمال عام ١٩٢٠ على الانكليز ، وكان يحترق شوقا لكي يعود الى بلاده حيث يشارك في الثورة . ولكن نبأين اخمدا حماسته وهو في طريق عودته : اخفاق الثورة العراقية ، واحتلال الفرنسيين لسوريا .واضطر الى الفرار، ولكن الى عالم الكتب في هذه المرة ، فعكف على قراءة جميع الكتاب

صدر اليوم

قبل انفجار البركان

لشيخ ادباء لبنان

مارون عبود

الناشر : دار الثقافة

بيروت ص.ب ٥٤٣

٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط ٢٥٠ ق.ل.

الاجتماعيين وتامل في حالة العرب المتاخرة ، فآمن بان تاخرهم مردود الى جهلهم والى الخلافات التي تقسمهم ، والى الراسماليين الذين يستغلونهم، والى السياسيين الذين يخونونهم . وسرعان ما شعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه بان يشن حربا لا هوادة فيها على جميع هذه الآفات .

ولا شك في ان هذا البطل يعكس نفسية جيل باكمله ، ويعطي المثل الرائع للبطل الايجابي الذي لا ينى عن الصراع ، والذي يؤمن باستكمال الوعي في مختلف الميادين ، وبان البطولة الحقة تظل عاجزة اذا لم تستبصر بكل ابعاد الحياة . ولولا ضعف التقنية الروائية لكانت « جلال خالد » من ابرز رواياتنا الوطنية .

وهذا ما تداركته رواية القصاص اللبناني توفيق يوسف عواد « الرغيف » (١٩٣٩) وفيها يشترك شاب وفتاة بدور بطولة وطنية رائعة . اما الشاب سامي عاصم فينتمي الى تلك الطبقة المفكرة الواعية التي تلتمس في العمل القومي تبريرا لحياتها ولوضعها المعنوي ، عشية الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٩ .وقد كانت البلاد العربية تتجمع لتتحرر من النير العثماني وكانت السلطات تلاحق سامي، فالتجا الى كوخ صغير في الجبل كانت توافيه اليه حبيبته زينة وتدلي اليه باخبار الثورة . وكان سامي وهو في مخبأه ينتظر فرصة مناسبة تمكنه من العمل ، بعد ان اعدم الاتراك عددا من رفاقه . غير أن هذا الجمود ما لبث ان ثقل على ضميره ، فزين له ان وضعه لا يخلو من جبن ونذاله . ولعله شاء ان يعزي نفسه من ذلك حين عمد الى قتل جندي تركي فر من الجيش . وقد ظل ينتظر حتى وشى به بعضهم فالقى الترك القبض عليه وساقوه الى السجن بانتظار محاكمته . واما زينة فانها في اثناء ذلك لم ترفض دعوة الحاكم التركي الذي كان يرغب فيها منذ زمن ، فاذا هي تدلف الى قصره ، وتظل ساعات الى جانبه تتامله وهو يشرب ويثمل ، حتى اذا اقبل عليها يود اغتصابها انتزعت مسدسه وقتلته به . وفي هذه الاثناء اعلنت الثورة العربية في الحجاز ضد الاتراك واصابت المجاعة البلاد العربية التي جعلت تسعى وراء خبزها مثل سعيها وراء استقلالها . وما لبثت زينة ان انضمت الى فرقة من الثائرين الذين كانوا يقومون باعمال التخريب في لبنان ، كالوف الشبان في سائر البلاد العربية . وبلغها ان سامي لم يمت، خلافا لما كان قد اعلنه الاتراك ، وانما التحق بعد فراره من السجن بالمركز الرئيسي لحركة الثوار التي اصبح الآن احد قوادها . وقد ظل يقاتل ويقود الحملات ضد الترك حتى سقط في ميدان المعركة ، ولكن النصر كان قد كتب للمناضلين العرب . ولم تستطع زينة بعد اذ بلغها النبأ ان تمسك دمعة حين رأت الثوار العرب يدخلون منتصرين الى قريتها الصغيرة . ان سامي لم يكن الا احد هؤلاء الابطال الذين اضطلعوا بمهمتهم وقاموا بنصيبهم في صراع العرب من اجل استقلالهم ورغيف خبزهم .

وبطولة سامي في هذه الرواية ، بطولة انسانية لا تخرج من اطار الخصائص البشرية ، وهو يجمع في شخصه مختلف هموم الشاب العربي المؤمن بالقومية العربية ، على كونه يعتنق المسيحية . كما انه يحب ويعشق وان ظلت حساسيته مرتبطة بعاطفته القومية . ان حبه للبطلة متصل اشد الاتصال بفكرة الثورة ، فهو يغنيها ويغتني بها ، ويرتفع بذلك الى البطولة والتضحية . لنستمع مثلا الى هذا المقطع الرائع الذي يصف فيه

المؤلف نفسية سامي حين أقبل احد مواطنيه يحدثه عن زينة ، بعد اعلان الثـورة :

« فمال سامي الى محدثه ، واحس شعاعا يضيء في قلبه لاسم من يحب. وطفا هذا الشعاع ابتسامة على شفتيه ، فعاد ينظر الى السماء ، واخذت صفحات حياته تكر امامه.. زاوية صغيرة هنا بين ضلوعه ، قد تستوعب الصحراء والدنيا وامجادها ، وتبقى مع ذلك مستوحشة ، وشيء صغير قد يحطم كل ظلم على وجه الارض ، ويغيب الظالمين في اعماقها ، ويظل مع ذلك متململا غير راض . ساقية المسك ، ووجه زينه ... الثورة ، الثورة . لو تعلمين يا زينه ما اجملها ، ما اعظمها ، ما اروعها ، ــ « لو تعلم ماتفهها الآن ، كالماء بلا خبز ، كالخبز بلا ماء . »

ومثله البطلة التي تتحسس قضايا الحياة ، الى قضية حبها وثورتها، فتشعر بالظلم الاجتماعي وفوارق الطبقات وتعلم ان ثورة شعبها لـــن تقتصر على تحرير بلادها من الاستعمار التركي ، بل ستحررها ايضا من الآفات الاجتماعية .

على ان روايتنا الحديثة لم تقتصر ، في مفهومها للبطولة الوطنية ، على النماذج الفردية التي قد تعبر تعبيرا ضيقا عن الشواغل القومية . فقد خلق بعض الروائيين ابطالا منفتحين يوحون بالتجسد في مئات الناس بل الوفهم وملايينهم بما يعبرون عنه من ايمان وعمل ونزوع . وان هذه البطولة الجماعية لانصع دليل على تغير مفهوم البطولة التي كانت مقصورة على افراد فائقين ليس بينهم وبين الاخرين قاسم مشترك . وهي تعبير واضح عن ان البطولة لا تكتسب معناها الحقيقي الا اذا كانت تحمل في ثناياها بذور العدوى ، وتدفع الى المشاركة والاسهام . فان البطل ليس بطلا حقا الا بما هو مثال يتكرر وانموذج يتعدد ، حتى يصبح الشـعب الذي ينتمي اليه بطلا كله .

ولعل خير رواية تجسد هذا المفهوم للبطولة هي « عودة الروح » (١٩٣٣) لتوفيق الحكيم ، وبدور موضوعها حول بعث مصر الجديدة ، الحدث الرئيسي في حياة المصريين بالعصر الحديث : كفاحهم من اجـل الحرية . انها قصة الاسرة المصرية كلها التي ترمز الى شعب يستيقـظ لحياة جديدة يريدها كريمة مجيدة كالسابق ، ويمثل هذه الارادة خمسة اقرباء نراهم في اول الرواية ، مقبوضا عليهم في مستشفى عســكري يصرون على ان يقضوا فيه فترة المرض جنبا الى جنب . فاذا تابعنـا القراءة ، الفيناهم يحبون فتاة واحدة يحاول كل منهم ان يكسبهـا اليه ويستأثر بها . ولكنها تفلت منهم جميعا وتشعرهم باخفاقهم في الحب، فاذا بهم يقعون في اليأس ، ويتباعدون .. ولا يردهم الى الالفة الا غضبة الشعب المصري وثورته ضد ابعاد زعيمه سعد زغلول ، فاذا هم يشاركون في الثورة جميعا ، مسوقين بدافع واحد ، متضامنين متماسكين، مستعيدين صداقتهم التي احبوها وارتدوا من حبها خائبين . لقد شعر اعضاء الاسرة ، بعد ان وحد الالم بينهم ، انهم مستعدون للتضحية حين ظهر سعد زغلول الذي جسد كل آمالهم . وهكذا تمت المعجزة الجماعية البطولية . لقـد ثار الشعب كله على المحتل . جميع طلاب المدارس كلها ، وجميـع اعضاء الطبقات كلها في الامة كانوا يتحدثون بلسان واحد . كل منهم كان يحسب انه هو الذي بدأ الحركة ، لانهم جميعا انتفضوا في وقت واحد مدفوعين بروحهم التي عادت اليهم . فكلهم يشعرون بان الايمان يوحد بينهم ، ويدركون ويحسون بغرائزهم ان اجدادهم كانوا يبكون كل ميت مـــن امواتهم بقولهم « عندما يصبح الزمن ابدية ، سنراك من جديد ، لانـك ذاهب الى حيث الكل في واحد » .

والواقع ان « محسن » ــ البطل الرئيسي للرواية ــ هو نموذج لجميع تلك الشبيبة الحائرة القلقة التي تتلمس طريقها في الحياة عبر قيـودها الكثيرة . انه ينتمي الى اسرة بورجوازية لا تملك حس القيم الصحيحة ؛ اما هو فكان يملك روحا تبغض الثروة والترف ، فهناك « ارواح تعذبهم الثروة » وان محسن ليحس الضيق والالم من كونه غنيا ، فكم من مـرة صرخ وبكى وكافح ضد ذويه لانه لم يكن يريد ان يرتدي ثيابا جديدة .. وكم من ابتهالات ودموع بألا يرسلوا اليه السيارة تنتظره على بـاب المدرسة . انه لم يكن يرجو الا شيئا واحدا ، ان يكون كهؤلاء الفقـراء من رفاقه ولم يكن شيء ليثير خجله مثل تميزه عن رفاقه بالثياب او دلالة الثروة .. وحين اضطر يوما الى ان يستقل سيارة ذويه ، بحضور رفاقه ، حسب انه يسمع صدى حكمهم عليه : « لقد خرج محســـن من عصبتنا الى الابد » وحين عاد الى بيت ذويه في الريف لقضاء العطلة، خيل اليه ان شيئا غامضا يحفر بينه وبينهم هوة ، وانه مهما يفعل ، فسيظل يشعر تجاههم بضيق شديد لا سبيل الى نفسيره ، ولم يكن يريد الا ان يثور على نوع الحياة الذي يسوقونه .

وهكذا يصبح محسن ، الى كونه بطلا قوميا ، بطل حرية اجتماعيـة تهزأ ببورجوازية مترفة تمنع الثروة فيها الرجل من ان يبحث عـن معنى حياته . انه يمثل الرجل الثائر على مجتمعه في وقت يبلـــغ صراع

ــ التتمة على الصفحـة ٩٧ ــ

صدر حديثا

فن الصحافة

بقلم اعلام الصحفيين

تحرير ادمون كوبلنتز

ترجمة انيس صايغ

احدث دراسة عن فن الصحافة الحديثة

الناشر : دار الثقافة

الكتاب الاول من نوعه ــ ٢٧٠ ص

الثمن ٢٥٠ قرشا لبنانيا

بيروت ص.ب. ٥٤٣

البطولة في الرواية الحديثة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الطبقات فيه ذروته . « واما عبده » عمه المحبوب ، فثائر هو الاخر على الظلم الاجتماعي . وهو يثور على فكرة المراتب التي كانت تسيطر على جميع الاسر البورجوازية في مصر . ولقد رأى اخته تعطي الخادم طعاما لم يكن احد راغبا فيه ، فصاح بها غاضبا : « اليس مبروك رجلا مثلنا ؟ اليس هو منا ؟ متى كنا نعامله بخلاف ذلك ؟ ومتى كنا في البيت على درجات ؟ » ثم اننا نراه يهاجم بكل جرأة المشعوذين والسحرة الذين كانت اخته تتوجه اليهم والذين كانوا يريدون » ان يهدموا البيت ببخورهم وطلاسمهم » !

وبعد فان محسن يظل رمزا للبطل العصري الحقيقي . لقد اصيب هو واعمامه بخيبة في حبهم ، ففروا الى ميدان العمل الوطني الذي طهر ارواحهم وشفاهم ، وهذا الفرار هو احدى الخصائص العصرية للبطل الحديث . فلقد رأيناهم ذات لحظة غارقين في الاسى واليأس ، ولكنهم امتلأوا بعد ايام بالحماسة واستخفهم النقاش في الوطنية . وقد كان محسن اشدهم تغيرا ، فان قلبه الذي حطمته خيبة الحب عاد يخفق من جديد في سبيل وطنه ، ومن اجل هذا الوطن مضى ينفق مذخور حبه الذي كان يكنه للفتاة . ثم ان الآلام التي عاناها جعلته اقوى على التضحية واشد احساسا بالبذل . فلم يعد يعنيه شيء من مسرات الحب او من النجاح في الامتحان ... انه لا يفكر بعد الا بقضية وطنه ، وهكذا يصبح لسان حال تلك الشبيبة كلها التي تنشد الاستقلال .

ثم اننا نجد مثالا آخر للصراع الجماعي في قصة طويلة للدكتور يوسف ادريس بعنوان « سره الباتع » صدرت اخيرا في مجموعة قصصية بعنوان « حادثة شرف » وليس في هذه القصة الا بطل رمزي هو فلاح من فلاحي قرية احتلها افرنسيون ايام حملة نابليون على مصر ، وكان اسمه حامد ، قاد معركة ضد الجنود الفرنسيين بعد ان قتلوا شيخ قريته ، وكانت سمته المميزة وشم عصفورتين على وجنتيه وبنصرا مقطوعا من يده . وقد أخذ الفرنسيون يطاردونه واثقين من انهم سيقبضون عليه بفضل هذه السمة المميزة .. ولكنهم فوجئوا بان عصابات صغيرة بدأت تتكون من مبتوري البنصر وواشمي العصافير يسمون انفسهم اولاد حامد ، فأصبح هم المستعمرين القضاء على اسم حامد ، لا على شخصه، لاسيما وانه قد اصبح السلطان حامد . وغزا اسمه كل انحاء الدلتا ومصر العليا . ثم قتل حامد ، فهاج الشعب واقام له ضريحا ، وبدأت الوفود تزوره وتشعر بأنها مرتبطة به أشد الارتباط . « ماذا كان حامد هذا قد فعل ليتجمعوا حوله بتلك الطريقة المذهلة ؟ وهل لانه قتل فرنسيا انتقاما لمصرع زميله الفلاح يرفعونه الى درجة كبيرة من التقديس؟ ام لانه تحرك في وقت كانت الناس في حاجة لان ترى فيه واحدا يتحرك كي تنطلق من عقالها وتندفع في كل اتجاه »؟ لقد علق الراوي الفرنسي في القصة على ذلك بقوله . « جئنا نغزو هؤلاء القوم بتفوقنا ، بمدافعنا، بموسيقانا النحاسية ومطبعتنا وتفاعلات كيميانا ، ولكن انى لنا بقدرتهم الخارقة على التكتل والحب والبقاء ؟ انى لنا بايمان كهذا ؟ انى لنا بالقدرة على ان نكون افرادا اذا اردنا وكتلة واحدة حين نشاء ؟ » وحين قطع الفرنسيون جثة حامد ووزعوها في انحاء البلاد ، بدأ المصريون يقيمون ضريحا فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان ، ثم يكون الازدحام الهائل عند كل ضريح « وادركت ان ما تحت قبة الضريح ليس هو المهم ، المهم هو الاجساد الخشنة الغليظة الملتفة حول الضريح ، المهم هو النداء الواحد الصادر من الافواه الواسعة الجائعة ، المهم هو الوجه الاخر للوحش الخرافي الذي خلع قلوب جنودنا بضربة واحدة من يده ، المهم هو ما تفرزه هذه الجموع ويتصاعد منها ويتجمع ويتداخل ويتبلور ويختلط باضواء المشاعل وانوار الشوارع وقرعات الدفوف واهتزازات الاجسام ..وضريح حامد كان هو البؤرة التي تتجمع حولها الارادات وتلتقي لتصبح اكسيرا سحريا قادرا على تحقيق الخلود . ماذا أقول ؟ لقد وقفت خاشعا واجفا اراقب الجموع وهي تفرز الايمان وتشترك في خلقه .. ويتصاعد النداء الواحد من القلب الواحد ، فيصبح حين يلتقي بغيره مادة سامية حية تعود تنسكب في كل قلب ، تطهره وتقويه وتغذي فيه روح البقاء .. لقد احسست بعظمة الحياة وروعة ان نكون بشرا وآدميين نمتلك هذه القدرة المعجزة . فدرتنا على ان نتجمع ليصدر عن تجمعنا ما هو اسمى من حياة كل منا ... ما فائدة البنادق والرصاص ؟ الكي نخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم ؟ وما فائدة القتل في قوم يحبون قتلاهم وموتاهم ؟ في قوم يخلقون من الميت الواحد مئات الاحياء ، ويخلقون لكل حي بعد هذا آلاف الاولاد ؟ »

ولا حاجة بي بعد الى ان اعلق على هذه البطولة الجماعية التي يتحلى بها الشعب في مصر ، والتي هي كامنة من غير شك في اي جزء آخر من اجزاء الشعب العربي الكبير . وهذا ما نجده حقا في قصة اخرى رائعة لفؤاد الشايب هي التي تحمل اسم مجموعته الفريدة « تاريخ جرح » وتصور الارهاب والظلم اللذين كان يعيش في ظلهما الشعب العربي في عهد العثماني بن. حاكم تركي فرض على مخاتير القاطعة التي يحكمها ان يأتوه بفتاة جميلة فر اخوها من خدمة الجيش ، فرفض المخاتير ذلك وتحملوا الوانا من الذل والهوان . ولكن الفتاة ما لبثت ان برزت هي نفسها في ساحة القرية العامة ، حيث تجمع السكان يتداولون في الامر وبعد ان مزقت ثيابها وتعرت تماما ، دعت المخاتير وهي تشتمهم الى ان يقودوها الى الطاغية . وفي هذه الاثناء برز شقيقها الفار فجأة ، فاذا جميع القرويين يثورون معه على الحاكم ، ويقصدون قصره فيزيحون رجال الشرطة فيجدون الحاكم يشرب الخمر ثملا ، ولا يتردد الاخ في قتله ، ثم يرتد الى اخته فيطعنها حتى « لا يراها احد بعد الان ابدا » كما قال . وفكرة هذه القصة تتضمنها العبارة التالية الواردة في ثنايا السرد : « ان حبة صغيرة من الارادة الصادقة جدير بها ان نضع حدا لاشد المظالم وتولد اشد الثورات تطهيرا . » وهكذا ننتصب تلك الفروية بطلة شهيدة تشق للمجتمع طريق الحرية .

*

وقد كان من الطبيعي ان يستوحي ادباؤنا التقاء الشرق والغرب في هذه الفترة من نهضة العرب ، ومن استعمار الغرب لهم ، فنشأ لون من الادب الروائي يصور هذا الصراع الذي يبزغ من التقاء هذين العالمين المختلفين ، ويتحول هذا الصراع الخارجي الى صراع داخلي في نفوس ابطال عاشوا في الغرب فترة من الزمن ، ثم عادوا الى اوطانهم فاتيح لهم ان يوازنوا ويقارنوا ، ولكنهم جميعا يعودون أشد ايمانا بشرقهم وبمصيرهم المشرق فيه ، فكأنهم بذلك يرهصون بهذه اليقظة العظيمة التي بدأت انوارها تبهر العيون .

وقد جسد ميخائيل نعيمة لونا من هذا الصراع في قصة طويلة لـه بعنوان « ساعة الكوكو » ضمنها مجموعته المشهورة « كان ما كان » . وفيها نرى فلاحا قرويا ، يدعى خطار ، يتهيأ للزواج حين يعود الى القرية مهاجر من اميركا يجذب بماله ووجاهته انظار القرويين جميعا ، وكان هذا المهاجر يحمل ساعة كوكو تثير اعجاب الجميع بما فيهم خطيبة خطار نفسها . ثم يظهر فجأة ان هذه الخطيبة تختفي مع المهاجر . ويبلغ من يأس خطار وشدة حزنه واغراء هذه الحضارة الغربية له ان يقرر هو ايضا الهجرة الى اميركا . وقد تمكن هناك من ان يكسب في اثناء الحرب ثروة كبيرة ، وان يتزوج بأمرأة اميركية تطمع بماله فحسب اذ كانت تحتقره وتنمى عليه الضعف ، وكانت تسخر خصوصا بساعة كوكو اشتراها مما اقتصده اول الامر من ارباحه وكان شديد الحرص عليها . وذات يوم التقى الزوجان ، وكان برفقتهما شاب اميركي ـ هو في الظاهر مدير اعمال الزوجة وفي الواقع عشيقها ـ بخطيبة خطار السابقة التي ظهر ان امرها انتهى الى ان تصبح خادمة لتعيل زوجها بعد ان فقد ثروته وافضى الى الفقر المدقع . وفي اليوم التالي اقبلت تزور خطار في بيته ، فاستقبلتها الزوجة الاميركية ابشع استقبال وخرجت مع عشيقها غاضبة. وفي تلك الاثناء تدق ساعة الكوكو، كما لو انها تذكر خطار بحياته الماضية وسعادته الفائتة . وبعد حين يعود خطار الى قريته بمفرده، فيستعيد حب القرويين وتقديرهم .

وواضح هنا اننا ازاء موضوع الارض الخيرة تجاه الحضارة الصناعية العاقة الهدامة . والواقع ان ساعة الكوكو رمز حضارة مادية تنجح بان تصرف امرأة عن رفيق حياتها الحقيقي وان تثنى خطار عن مهمته النبيلة كفلاح . ففي هذا المحيط من المدنية المادية الذي يبرز فيه وجه امرأة خائنة ، يفقد خطار كل سعادته ، بالرغم من انه كسب ثروة عظيمة ، وهو لا يلبث طويلا حتى يشعر بان هذه الحضارة « برج شاهق تمشي دواليبه العظيمة على صدره » فيفر من جديد ليعود الى تلك الارض الامينة التي يستطيع ان يغفى فوقها باطمئنان .

وقريب من هذا الرمز ما ندركه في قصة « قنديل ام هاشم » (١٩٤٣) ليحي حقي ، وهي تروي قصة فلاح يعيش مع عائلته بالقرب من قبر ام هشام ، احدى الوليات المسلمات . وقد ارسل والد الاسرة ابنه اسماعيل الى انكلترا ليتابع دراسة الطب ، فأوصاه بان يحافظ على تقواه ليعود طاهرا ويتزوج بابنة عمه ، وهي فتاة يتيمة الابوين كانت تعيش معهم . ولكن الغرب يسحر الفلاح ، فيعود بعد ستة اعوام وقد تغيرت اخلاقه تماما . فاذا هو يواجه عالما جديدا في قريته ، عالما يحس له بالكره والاحتقار ، وما يلبث ان يثور : ضد ابويه اللذين كانا يريدان شفاء الرمد في عيني فاطمه بزيت قنديل ام هاشم ، وضد الجمهور الذي كان يطيع التقاليد اطاعة عمياء ويؤمن بمثل تلك الخرافات . ويحاول يوما ان يحطم قنديل ام هاشم فيهاجمه الناس ويضربونه فيسقط مريضا ردحا من الزمن ويفكر بالعودة الى اوروبا ليستوطنها نهائيا . ولكنه ينطوي على نفسه بضعة ايام يشعر على اثرها بان قدميه كانتا تقودانه الى حيث يقوم قبر ام هاشم فيطوف به حينا من الزمن ، وما يلبث طويلا حتى يستعيد ايمانه ويعود الى عمله فينغمر فيه حتى ينتصر على نفسه ويلتحق من جديد بالمجتمع الذي كرهه ، فيتزوج بابنة عمه وينجب الاولاد . ويبدو ان المؤلف يتخذ اسماعيل آلة للمقارنة والصراع بين الشرق والغرب، فبالرغم من الآفات التي تتآكل الشرق ، وبالرغم من الجهل والمرض اللذين يعمرانه نراه ينتصر على الغرب بفضل الروح التي تحركه وقوة الايمان التي تقوده . لقد عرف اسماعيل سذاجة الشرق وبساطته الطبيعية ولكنه عرف كذلك عبقرية الغرب وذكاءه ولاسيما عدم ايمانه ، غير ان الايمان هو الذي ينتصر آخر الامر . فالشرق مرموز له بفاطمة ، والغرب بماري الانكليزية التي تمنح اسماعيل كل شيء ، وتفتح له آفاقا جديدة دون ان تترك من أجله علاقات لها اخرى مريبة . والمفارقة واضحة بين حياة البطل قبل سفره وبعده . لقد حاول اذ عاد ان ينشر اراءه ومبادئه الجديدة ، فاعتدى عليه الجمهور ، وشاء ان يشفى فاطمة بالاسلوب الطبي الحديث فاصيبت بالعمى . وعاد ذات مساء الى قبر ام هاشم ، فرأى جموع المؤمنين ، وادرك انه لم يكن امامه «افراد» وانما شعب يربط بين اشخاصه الايمان . ان العلم من غير ايمان لا قيمة له ، ولانه اراد ان يشفى فاطمة بعلمه وحده اصيبت بالعمى ، ولم تستعد بصرها الا حين استعاد ايمانه ... وتلك المرأة الساقطة ، نعيمة التي كانت تتردد دائما على قبر ام هاشم تزوره ، ماذا كانت تريد ؟ لقد نذرت بان تقدم لها خمسين شمعة اذا محا الله شقاءها .. وقد اتيح لاسماعيل ان يراها بعد عودته من اوروبا ، وهي تبر بنذرها ، فادرك ان الايمان وحده استطاع ان يطهر هذه الروح التي زلت .

اما الصراع الذي تجسده روايتا شكيب الجابري « قد يلهو » و «قوس قزح» فيتخذ اتجاها آخر يتجلى فيه وعي امرأة غربية لمجد الشرق والعروبة اعمق واروع من وعي رجل شرقي لهذا المجد . فموضوع الروايتين واحد، غير ان الذي يرويه في الاولى هو البطل ، وفي الثانية البطلة . ورواية البطلة تحكى قصة فتاة المانية مسكينة تهجر بيتها الذي تعاني فيه عناء شديدا من ظلم امرأة ابيها وتضرب في الشوارع بحثا عن مصيرها ، فاذا هي تكره جميع هؤلاء الرجال الذين لا يريدون مساعدتها الا بثمن جسدها. وتشعر بانها تنهدم تحت وطأة الشقاء والجوع ، فيصح عزمها على الانتحار حين تلتقي بطالب عربي ، اسمه علاء الدين ، فيستقبلها بنبل في غرفته ، فلا تلبث ان تحبه حبا عميقا مخلصا ، وتدرك حين تستسلم له انها تمنحه خير ما في كيانها ووجودها ... ولم تكن تكترث لعلاقات علاء الدين الاخرى . فان عاطفة العرفان الذي تكنه له تحمي حبها اياه من كل غيرة، وتدفعها الى الاهتمام بتاريخ الشعب العربي كله الذي ينتمي اليه علاء الدين ، فاذا هي شديدة الاعجاب بنبل العرب ، واذا هي تمجد تاريخهم وماضيهم العظيم . وخشية من ان تجرح حساسية علاء الدين ، تمتنع عن ابلاغه انها حملت منه . ومن اجل اخفاء حقيقة امرها ، راحت تبحث عن عمل متواضع في مستشفى تعرفت فيه الى فتاة مريضة ، وما لبثت الصداقة ان ربطت بينهما . وقد اقترحت عليها المريضة ان تصطحبها الى بيت ذويها لكي تتولى السهر على شقيقيها الصغيرين . وفي تلك الاثناء ابلغها علاء الدين عزمه على مغادرة برلين نهائيا الى سوريا. وفي يوم واحد ، استقل كل منهما القطار ، هو نحو الشرق ، وهي نحو منزل صديقتها في الريف .

وبعد اثنتي عشرة سنة (وهنا القسم الثاني من الكتاب) يدخل بطل ثالث الى المسرح هو محمد علي ابن علاء الدين وايلسا . وقد كان هذا الطفل يجسد في عيني امه ذلك الاب البعيد الذي نسيها دون ريب ، ففيه كانت تعبد علاء الدين كاله، وتحول حبها الى نوع من الصوفية كان محمد علي هو موضوعها ، فهو سوف يصبح بطلا عربيا ، وسيسهم في بعث المجد العربي من جديد . وقد كانت امه تود ان تعود به الى الشرق ، بالقرب من ابيه . وكانت فكرة هذه الرحلة تستولي عليها استيلاء

شديدا ، وكانت في الواقع تتحمل جميع مصاعب الحياة طمعا في تحقيق هذا الامل .. وكادت تصاب بالجنون يوم مرض محمد علي ، ولم يكن من شان فقرها الا ان يؤخر شفاءه ، ثم مات محطما كل آمالها . وحين تمكنت من الصبر على المها الشديد اغتنمت مع صديقة لها فرصة سانحة ، فامتهنت مهنة الرقص . وقد مرت الفرقة التي تنتمي اليها بمدينة بيروت في اثناء تجوالها . وهناك في احد المراقص ، التقت مرة ثانية بعلاء الدين، وانبعث ذلك الحب الذي القى عليه الزمن ستاره اصفى وانبل مما كان وروت ايلسا لعلاء الدين كل شيء ، ورأت فيه صورة ابنها الذي حدثته عن كل حادثة من حوادثه. وقد كان من الطبيعي ان يقدر علاء الدين في ايلسا حبها للبطولة العربية واملها في ان ترى ابنها يوما احد هؤلاء الابطال ، فاذا اسماء محمد وعلي وعمر وخالد وسواهم من ابطال العرب تبعث في نفسه اصداء جديدة ، واذا هو يتمثلهم منبعثين من سماء العرب يقذفون اليهم بنداءات جديدة ويبثون في نفوسهم روح الصراع والنضال . واذ ذاك شعرت ايلسا بانها اضطلعت بمسؤوليتها وادت رسالتها ، فانقطعت عن مقاومة السل الذي كان يتأكلها والذي انتزع منها ابنها ، فسقطت تحت براثنه وذهبت مع الريح .

بهذه اللهجة المؤثرة تنتهي رواية « قوس قزح ». انها امرأة اجنبية ، امرأة غربية ، تلك التي توقظ شعور البطولة في قلب علاء الدين الشرقي. وهكذا يكون الشرق مدينا ببعثه للغرب نفسه . فبعد ان تسلم هذا الغرب منه رسالة الحضارة والايمان ، في لقائهما الاول بالقرون الوسطى ، عاد فسلمها اليه قبل ان يسقط من جديد ، والشرق هو الذي سيقود العالم الآن .

ولا بد لنا قبل ان ننتقل الى القسم الاخير من بحثنا من ان نشير الى رواية « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، ففيها ايضا تصوير للون آخر من الصراع ، هو الصراع الفكري ، بين الشرق والغرب الذي لا يتسع المجال لتحليله .

*

اما ابطالنا الاجتماعيون الثائرون ، فيستغرقون معظم انتاجنا الروائي والقصصي . وهذا دليل واضح على وعي ادبائنا لاهمية المجتمع في بناء حياة سليمة ، وعلى محاولتهم معالجة مشكلاتنا وقضايانا الاجتماعية قبل كل شيء . ولعل من الغريب ان نلاحظ ان كثيرا من هؤلاء الابطال يخرجون من صراعهم مع المجتمع مخفقين او يائسين ، مما يشير الى قسوة الصراع ، والى ان الآفات التي تتملك مجتمعنا من القوة بحيث لا يمكن التغلب عليها بسهولة .

ولسنا نعرف اديبا عربيا في عصرنا الحديث حملت آثاره من الثورة والتمرد ما حملته آثار جبران خليل جبران . وسواء أكانت قصته رواية او اقصوصة ، فانها تنبض بهذه الروح . ففي « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » و « العواصف » و « الاجنحة المتكسرة » سلسلة من الثورات . ثورة العاطفة والحرية والروح الطماحة ، وثورة على رجال الدين والاقطاعيين والرأسماليين والتقاليد العمياء. ومن اليسير ان نجد في اقصوصة « وردة الهاني » ثورة عارمة على تزويج الفتيات من رجال لا يعرفنهم ، فتتعرض تلك الزيجات من اثر ذلك للاخفاق ، كما نجد في « مرتا البانية » ثورة على ظلم الرجل الوحش الذي يغرر بالفتيات ثم يتركهن نهبا للاثم والرذيلة . ولئن كان الفن القصصي منهارا في اقصوصة « مضجع العروس » فان التمرد الجبراني يبلغ فيها ذروته ، اذ يثور على النفاق الاجتماعي والتقاليد الفاسدة ويبارك الحب المخلص ويدعو الى فتح الابواب له بل يجعله شريعة من شرائع الخالق . ثم ان بطلي « يوحنا المجنون » و « خليل الكافر » يثوران على رجال الدين الذين يتسلطون على خيرات الناس ويسلبونهم اموالهم مستغلين عاطفتهم الدينية وايمانهم الساذج .

وتكتسب معظم آثار طه حسين قيمة اجتماعية كبيرة لان جميع ابطاله ثائرون على كاكلته . فكتاب « الايام » يحمل ثورة اجتماعية كاملة : انه يهاجم بطريقة رمزية آفات مجتمع مريض يزخر بالاكاذيب والجهل ونفاق رجال الدين . وحين يروي المؤلف قصص اولئك الشبان الذين سقطوا في امتحاناتهم فظنوا ان هناك سوء طالع يلاحقهم ، انما يريد ان يسخر من معتقداتهم واوهامهم الساذجة التي يؤمن بها كثير من هؤلاء الشرقيين الذين يطمحون الى المعالي ، فيما هم يلتزمون الكسل والجمود . ومظهر اخر من مظاهر الثورة يكمن في تلك السهام التي كان يجمل التعليم الازهري هدفا لها . فيهزأ بالمشايخ ويسخر بآرائهم ويناقشهم ، فيصبح عدوا للجميع ويتهم بالضلال والالحاد . و «اديب » هو الاخر ثائر ، وقد ادت به ثورته الى هدمه ، لانها فقدت قدرها اللازم . ثورته ضد التقاليد وضد وسطه وضد انغلاق ذويه الذين كانوا يعتقدون ان اجتياز البحر يعرض لخطر مدنية فاسدة ، وضد زواجه الذي كان مع ذلك سعيدا هانئا . وترمز «امنه» في « دعاء الكروان » الى ثورة المؤلف نفسه ،انها تقطع صلتها بالتقاليد اذ ترفض مقاسمة ذويها حياتهم ، وتبحث هي نفسها عن حريتها التي تكلف غاليا دائما ، وتختار طريقها فتذكرنا بابطال سارتر . وكانت من قبل تتساءل : « الثورة ؟ العصيان ؟ ما ارهب هذه القوة التي تملك القلوب ، وتعدم الشخصية والارادة ، هذه القوة

المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر

تقـــدم :

١ ـ ريح الشرق وريح الغرب

تأليف : بيرل باك

ترجمة : سميرة عزام

٢ ـ حقول الفردوس

تأليف : جون شتاينبك

ترجمة : انجيل عبـود

٣ ـ قصص الحياة

اشهر الكتاب يقدمون اروع انتاجهم

ترجمة اميل خليل بيدس

٤ ـ حتى الشمالة

تأليف اميل خليل بيدس

٥ ـ اني اعترف

تأليف كمال سـنو

(في جميع المكتبات)

التي يسمونها إحترام الاشياء الموضوعة . » ولكنها لا تتردد في ان تسلك طريقها التي اختارت . « ان على واجبا ان اسير مستقيمة امامي يوما فيوما نحو الشرق ، نحو هدف اعرفه وانشده بغموض . » وتدفعها هذه الثورة فتصل ، فاذا هي تحس انها مخلوقة جديدة ، تختلف عن تلك الخادم التي كانت من قبل . ثم انها تخلق شخصية المهندس الجديدة، فيتحول من رجل اناني الى انسان يزخر بالحب والتفهم .

وليس المجال بمتسع الان لاستعراض جميع الاثار الروائية التي تمثل هذا الصراع فنكتفي بالاشارة الى ابطال اجتماعيين واعين في قصص محمود كامل وذو النون ايوب وعبد الملك نوري وعبد السلام العجيلي ويوسف الشاروني وامين يوسف غراب وسواهم .

على ان اوعى الابطال الاجتماعيين واشدهم تحسسا لواقع الحياة هم ابطال نجيب محفوظ،الروائي العربي الاول ، غير مدافع .ولاشك في ان ابطاله يجسدون خير تجسيد المفهوم الجديد للبطولة الذي بدانا به بحثنا . وليس هذا المفهوم نظرية تجريدية ، وانما هو انعكاس الحياة الاجتماعية التي نواجهها كل لحظة . وليس ثمة رواية تمثل شخصيات مجتمعنا العربي خيرا مما يمثله ابطال روايته المثلثة «بين القصرين» و «قصرالشوق» و «السكرية » . فان قسوة الاحداث وعنفها ووحشيتها احيانا هي التي تشعرنا بثقل الواقع وواقعيته ، وتكشف لنا اتساع الرقعة التي يقوم فيها الصراع بين الانسان وبين عالم كبير مفترس . والحق ان المغامرة البطولية التي تنطوي عليها حياة البطل الرئيسي في الرواية ، كمال ، انما تبدو لنا حية وحقيقية لانها تكاد تسحق فيه الانسان ،ولكنه مع ذلك لا يدعها تسحقه ، بل يثور من جديد ليذكر ابدا بسيزيف . والحق ان في الرواية مجموعة من الابطال يمثل كل منهم نموذجا حيا لكائنات اجتماعية تعيش حياتها ويتطور خط سيرها تطورا طبيعيا لا اقتسار فيه ولا تصنع . ولكن معنى البطولة الحقيقية التي ينبغي الا تنفصل عن الاخلاق ، مهما كان الوضع الاجتماعي ، انما يتجلى في كمال الذي اتخذ له جذورا في اخيه فهمي ، وامتدادات بطولية في ابن اخته احمد شوكت . وهو في ابعاده كلها يمثل الانسان العربي الجديد في القرن العشرين ، هذا الانسان الذي ينبغي عليه ان يواجه سلسلة طويلة من الصراع في حياته السياسية والاجتماعية والثقافية ، والذي هو مدعو ابدا لان ينطوي على داخله ليستمد من وعيه قوة مستمرة على مواصلة الثورة بعد ان يندمج في المجتمع اندماجا طبيعيا يبعده عن التفكير بالفرار والهرب كحل لمشاكله المستعصية الكثيرة . ان فهمي ـ الجذر القومي لكمال ، اذا صح التعبير ـ هو بطل من ابطال الوثبة التي اطلعت سعد زغلول ، هؤلاء الابطال الذين يمثلون الطليعة لكل انتفاضة ويتحلون بمجموعة من القيم والمثل الصافية تدمغ نفوسهم بطابع الاندفاع المخلص الذي يدفع الى التضحية بالذات في حركة بطولية نادرة . حتى اذا قتل فهمي في احدى مظاهرات الطلاب التي قامت ابتهاجا برجوع سعد زغلول من المنفى ، ولدت هذه الشعلة من جديد في نفس كمال ، وان ظلت كامنة تحت الرماد . ويتبدى كمال في مطلع شبابه فتى متحمسا لكل شيء ، يحب فتاة بورجوازية حبا يملك عليه نفسه ويضطره احيانا الى الذل والنفاق . ولكن حبه لسعد زغلول لا يقل عن ذلك قوة . وتمضي الايام فتنمو معها معتقداته ، ويظل حبه يرفده بطاقة عظيمة من الحماسة ، فيتكامل بعده الذهني ، ويبدأ يومن بالكلمة وقوتها ، حتى اذا اخفق في حبه وتزوجت الفتاة من شاب ينتمي الى طبقتها كانت هذه اول صدمة عنيفة ترج نفسه وتضعه وجها لوجه امام ظلم قاهر ، هو تفاوت الطبقات ، ويبدأ ايمانه بالقيم يتزعزع بعد قلقه وضياعه ، وتسقط احلامه ومثاليته فيقع في ثورة الحادية جارفة وتطبق عليه قسوة الواقع الحجري فيفر الى الفكر والادب والفلسفة ، ولكن هيهات ان ترد له نفسه وان تزيل من حياته حس المأساة والفاجعة الذي طغى عليه ، لاسيما بعد ان انهارت مثله السياسية بعد وفاة سعد تحت ضغط الرجعية السياسية ، وملأه الانحلال الخلقي يأسا واشعره بان فساد المجتمع اقوى من نضاله وصراعه العنيف ... وساق حينا من الزمن في تيه وقلق وضياع، وكان يعي ذلك فيقول بسخرية والم « انا الحائر الى الابد» ولكنه مع ذلك لم يستسلم بل اخذ يومن رويدا رويدا بانه « ربما كان من الخطأ ان نبحث في هذه الدنيا عن معنى ، بينا ان مهمتنا الاولى ان نخلق هذا المعنى » ثم يتبلور موقفه من مجتمعه ، فيرى ان « غاية ما يعزي به نفسه هو ان المعركة لم تنته ولن تنتهي ولو لم يبق من عمره الا ثلاثة ايام » وهكذا ينتصب كمال رمزا للصراع الدائم الذي يتابعه بعده ابن اخته احمد شوكت .

والواقع ان كمال يجسد كل هذا الجيل الجديد من المثقفين الذين يقبلون على الدنيا بروح ملأى بالعزم والاصرار ، ثم يصابون بخيبات متتابعة من مجتمعهم المريض الذي يحيل صراعهم الى قوة سلبية لا تحفظ لهم ثقتهم .. وان بوسعنا ، نحن الذين نعيش الثورات ، ان نشعر بخفقات قلب كمال حين نجد ثورتنا تجهض على ايدي بعض الساسة الذين يريدون ان يقودوا وهم ليسوا على مستوى الثورات . ومع ذلك فمنذا الذي يرتضي منا ان يخون وعيه وضميره وايمانه بتبعته في المجتمع الجديد فيرمي السلاح ويستسلم ؟ ان هذا السلاح سيظل مرفوعا، وستظل اليد التي ترفعه متماسكة مناضلة ولو اعترتها رعشات الالم والخوف ، فانما يسري في عروقها نسغ الصراع البطولي الى الابد .

سهيل ادريس

قريبا جدا :

الديوان المنتظر

عائدون !

لشاعر المأساة

يوسف الخطيب

قصائد رائعة تغني العودة الى

الارض السليبة الحبيبة

دار الآداب ـ بيروت